تدبرٌ في سورة يس

القرآن المكي طافحٌ بآيات الكون الفسيح، ولطالما أعياني أن أعرف الحكمة من هذا؟!، والحقيقة أنَّه ليس لنا من علوم الكون إلا قُصاصاتٍ صغيرة، ولا يتسع عمرنا المحدود لإدراكها كلها ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85].

أحسب أنَّ سورة يس قد أخذت قريش إلى رحلةٍ في الكون العابد، من فرشه إلى عرشه، والقوم على فريقين، قوم يبصرون، وقوم سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون!، فتَنَقَّلتْ الآيات بين الأرض الميتة والأزواج كلِّها والشمس التي تجري وتَسْبحُ، والقمر وتقلباته، والفلك المشحون والأنعام، ثم مركزية الحياة الأخرى بعد الموت، رسائل كثيرة تحملها الآيات، نعرف بعضها ونجهل الكثير.

الرجل العربي كان يحسب نفسه مفصولاً عن الكون، وكلُّ قطعةٍ في الكون تُدبِّر أمرها بنفسها، وإلهُ هذا العالم خلق وترك واعتزل!، فجاءتْ سورة يس وغيرها تُخبره أنه جزءٌ من هذا الكون، وأنَّ هذا الكون كُلَّه مُسبِّحٌ عابد، ثمَّ أنتَ أيها الإنسان أَخٌ لذلك الكوكب الآفل في السماء، فهو يسجد ويُسَبِّحُ ويخضع ولا يخرج عن مساره، فما بالك خارجٌ عن مسارك، شاذٌ عن خشوع الكون والكائنات؟!، ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:81-83].

آياتٌ مثل هذه كانت تُشكِّل هزَّةً للعقل البشري آنذاك!، وهذا المعنى متكررٌ في غالب السور المكية، مشهد جمع الكون في إطار واحد، كما في سورة الشمس، والليل، والتكوير، والقيامة، والمرسلات، ونوح، وغيرها كثير، ثمَّ إنَّ معاني القرآن معينٌ لا ينضب، فهذه رسالةٌ